صيف وفيات الأعيان...
عندما يزّور التاريخ يرحل المؤرخون...

المستقبل - الاحد 13 تموز/يوليو 2008 - العدد 3016 - نوافذ - صفحة 12

القاهرة ـ حمدي رزق

بين كتب التراث ثمة كتاب ضخم مشهور يعرف باسم "وفيات الأعيان" كتبه المؤرخ ابن خلكان قبل نحو سبعة قرون (وترجمه وحققه الباحث والمحقق الكبير الراحل إحسان عباس).. ويعد العمدة الأساسية في ترجمات مشاهير العروبة والإسلام، وعنوان هذا الكتاب ـ أو العمل الضخم جداً الذي تضمه مجلدات ـ صار مثلاً على فكرة السنوات التي يغيّب فيها الموت عدداً من المشاهير وأصحاب القيمة الكبيرة في المجتمع!
وهذا الصيف الذي لم يمر منه سوى شهر واحد بدأ برحيل المؤرخ الكبير يونان لبيب رزق قبل شهرين ثم رحيل المؤرخ والمثقف اليساري رؤوف عباس وأخيراً الباحث والمثقف والمؤرخ الشهير عبد الوهاب المسيري. هؤلاء ليسوا أعياناً فقط بل انهم جميعاً من "حملة التاريخ"! وهم جميعا أيضا من أصحاب المواقف السياسية ومثلوا معا جيلاً من المؤرخين الذين اختلفوا عمن سبقوهم في منهجهم وفي اسلوبهم في التناول، ولعلهم حققوا من الشهرة ما لم يحققه أحد من المؤرخين والباحثين الكبار في مصر (عدا عبد الرحمن الرافعي ومحمد أنيس من الأجيال السابقة عليهم)!

الموسوعي الثائر

عبد الوهاب المسيري، مثّل رحيله انطواء صفحة شديدة الخصوصية في الفكر المصري.. فالرجل ليس مجرد مؤرخ ولا هو مجرد باحث عظيم في كل ما يخص اليهود واليهودية والعبرية والصهيونية ولا هو مجرد مترجم له باع عظيم، ولا كاتب صحافي له جمهوره الذي ينتظر عواصف أفكاره ومقالاته المدهشة.. كان المسيري بحق تجميعاً متجانساً لكل هذه المواهب في بوتقة واحدة، إنه نموذج للمثقف الموسوعي في زمن لا يعرف الموسوعية ولا يؤمن بها ، كان يذكرك بالمثقفين العرب في العصور الوسطى الذين كان الواحد منهم يشتغل بالفلسفة والكيمياء والشعر والأدب والترجمة في آن.. ولعل هذه هي الصفة الرئيسية في المسيري كمثقف ومفكر..
فأما الصفة الثانية في المسيري والتي لا تكتمل شخصية المسيري من دونها فهي كونه ثائراً، ثائراً على الدوام يصنفه اليساريون يسارياً ويصنفه الاسلاميون اسلامياً والجميع يضمه لصفوف المدافعين عن قيمة الحرية، وإن اتسم دفاعه عنها في بعض الأحيان بالحدة الواضحة! ولم يغضب الفرقاء السياسيون من المسيري قط، حتى النظام لم يبد غضبه عليه برغم الهجوم العنيف الذي شنه المسيري في سنواته الأخيرة على هذا النظام، لكن أحداً لم يكن بوسعه تجاهل قيمةالمسيري مؤرخاً وباحثا ومترجماً ومثقفاً كبيراً ولا كان بوسع أحد أن يتجاهل قيمته كثائر من أجل الحرية في زمن لا يتحدث فيه أحد عن الثورة والثورية ويلتمس فيه الجميع قيم الإصلاح بطرق متباينة!
والمسيري رسخ قيمته الموسوعية بعدد من الأعمال ولكن يبقى عمله الأكبر الذي نحت اسمه خالداً ومتميزا هو موسوعته المهمة (اليهود واليهودية والصهيونية) التي تعد المرجع الأم بالعربية في كل ما يختص باليهود عرقياً ودينيا واسطورياً وثقافيا وفكريا وصهيونياً.. وهي الموسوعة التي واصل المسيري بعدها مهمته التي رآها مقدسة لكشف خرافات الصهيونية السياسية والدينية العنصرية في معظم كتاباته، سواء التي ضمتها كتب أو لم تضمها وظهرت في صورة مقالات.
ورسخ المسيري قيمته ثائرا بانضمامه معظم الوقت إلى اليسار المصري، وفي أخريات حياته تولى منصب المنسق العام للحركة المصرية من أجل التغيير (كفاية) وهي الحركة المعارضة التي اتسمت بالحيوية في الشارع المصري لبعض الوقت وأغلب صفوفها من اليساريين!

وربما يعجب من لا يعرف سيرة المسيري ـ الذي رحل يوم الجمعة 3 تموز ـ يوليو الجاري عن 70 عاماً ـ حين يعرف أن الدراسة الأساسية للمسيري لم تكن العبرية ولا اليهودية بل ان الرجل تخرج في كلية الآداب 1959 وحصل على الماجستير في الأدب الإنجليزي المقارن من جامعة كولومبيا ـ نيويورك بالولايات المتحدة الأميركية ثم على الدكتوراة في نفس التخصص من جامعة ريتجرز بنيو جيرسي 1969. لكنه استثمر كل هذه الدراسات في التعرف إلى بواطن وأصول الثقافة اليهودية والديانة اليهودية ايضاً، ومنهما نفذ إلى أعماق الفكر الصهيوني فصدرت له عشرات الدراسات والمقالات عن إسرائيل والحركة الصهيونية حتى صار يعتبر في الأعوام العشرين الأخيرة واحدا من أبرز المؤرخين المتخصصين العالميين في الحركة الصهيونية (منذ العام 1970 والى العام 1975 شغل المسيري منصب رئيس وحدة الفكر الصهيوني بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام في عصر إدارة الأستاذ محمد حسنين هيكل للأهرام والذي صار بعد ذلك من أهم أصدقائه).
واذا كان المسيري عرف بموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية فان له أعمالاً لا تقل خطورة عن هذه الموسوعة مثل "نهاية التاريخ.. مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني" 1972، وجاء هذا الكتاب قبل 28 عاما من تأليف المفكر الأميركي "فرانسيس فوكوياما" لكتاب يحمل العنوان ذاته! لكن الفارق بين النظريتين أن رؤية فوكوياما تعتبر أن نهاية التاريخ تعني انتصار الولايات المتحدة على الاتحاد السوفييتي ، فيما يرى المسيري أن نهاية التاريخ نظرة فاشية اخترعتها الدول الغربية للسيطرة على العالم!
والمسيري واحد من اغزر كتاب مصر والعالم العربي على الإطلاق(47مؤلفاً من بينها موسوعتان) في 36عاماً من التأليف والترجمة وتنوعت مؤلفاته تلك بين الصهيونية وبين قضايا المرأة والعلمانية والثقافة وبين قصص لأطفال أحياناً. فهو كان مغرماً بتأليفها حتى انه نال جائزة السيدة سوزان مبارك كأحسن كاتب لأدب الطفل في مصر (العام 2000) !وهذه الغزارة جعلت المسيري حاضرا في المشهد الثقافي المصري طوال الوقت. أما التنوع الشديد في كتاباته فانه جعله يخرج من معطف المؤرخ والباحث المتخصص ليصبح أكثر المؤرخين والباحثين على الإطلاق تفاعلاً مع المجتمع الذي يعيش فيه وانخراطاً في السياسة وقضايا الرأي!
وبقي المسيري ـ كقيمة سياسية ـ أقرب إلى حالة شديدة الخصوصية ، ومن الصعب حسم توجهه السياسي الذي تم تصنيفه أغلب الوقت بوصفه يسارياً، فلا يمكن تجاهل التعاطف الشديد بين الاسلاميين وبينه خصوصا في السنوات الأخيرة ولا يمكن تجاهل موقف المسيري من العلمانية التي درسها بحيادية تامة في كتابه (العلمانية تحت المجهر) مع المفكر السوري عزيز العظمة (العام 2000 ، والتي أوسعها انتقاداً في كتابه(الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان) بعد ذلك بعامين ، فكيف يكون يسارياً خالصاً من يهاجم الفلسفة المادية التي تعتمد عليها الاشتراكية اعتماداً كاملاً؟ في الوقت ذاته لم يكن المسيري من دعاة الإسلام السياسي، فهو لم يتكلم مرة واحدة بشأن تطبيق الشريعة مثلا لكنه على ما يبدو كان متعاطفاً بشدة مع الجوانب الانسانية في الحضارة الإسلامية ويراها قادرة على بناء الروح لدى الإنسان المعاصر!
اذن ؛ كان المسيري حالة بالغة الخصوصية بين حملة التاريخ المصري والعربي في القرنين العشرين والواحد والعشرين ومثل فقدها فقدا لذات هذه الخصوصية التي ـ على كثرة المتخصصين في اليهود واليهودية ـ ستظل تفتقد موسوعية المسيري ورؤيته الشاملة!

"مشيناها خطى"

هذا عنوان أشهر كتب المؤرخ الراحل رؤوف عباس والذي حمل صفحات من سيرته الذاتية واختتم به حياته التأليفية، واثرى به المكتبة العربية.. كانت مذكراته هي مذكرات رجل أعانه الله على دخول الحياة الأكاديمية فعاش في داخلها وكأنه خارجها. من يقرأ هذه المذكرات ربما يشعر أنه أمام رجل مثير للمتاعب، الرجل كان أهدى كتابه "إلى الشباب.. عساهم يجدون فيه ما يفيدو إلى الذين يسممون الآبار أمامهم.. لعلهم يتعظون"! على حد قوله.
وروح الاستاذية الممتدة هذه كانت أهم ما يميز رؤوف عباس، هذا الرجل الذي لم يجعله انتماؤه لليسار والتقدم ينحاز تاريخيا الا للحقيقة المجردة، ورفض ان يكون محسوبا على النظام حتى عندما كان النظام اشتراكيا في العصر الناصري.. وظل عباس واحدا من أكثر المؤرخين المصريين والعرب استمساكاً باستقلالية المؤرخ والمثقف على السواء.
عباس غيبه الموت أيضا كالمسيري في أحد أيام صيف وفيات الأعيان الحالي (تحديداً في 26 حزيران ـ يونيو الماضي).
ينتمي رؤوف عباس إلى بقايا جيل ترعرع فى مصر الليبرالية وهو فى طريقه للإنقراض ولم يبق منه إلا افراد يعرفون معنى الجدية والاستقامة والوطنية والنجاح والصبر والصمود والإستقلالية والأمانة وعزة النفس وكرامتها والحفاظ على روح مصر ووحدتها الوطنية.

والسيرة الذاتية لعباس تخبرك بكل شيء في ضمير هذا الرجل وتجلو لك كل ما خفي من حياته وتبين كيف يحيا المؤرخ في الحياة الجامعية المصرية، لاسيما اذا اختار هذا المؤرخ أن يحيا مستقلا عن الجميع الا عن روح التاريخ وقوانينه، ان كانت له قوانين باقية في هذا العصر.
لن أزيد عن ما كتب حول هذه السيرة الذاتية المتفردة فى مصر بصراحتها وشجاعتها وعبق وطنيتها، حتى إنه ذكر الوقائع بأسماء أصحابها الحقيقية، والتي يمكن تلخيصها بأنها سرد للتغيرات التى حدثت فى مصر وخاصة فى العقود الأربعة الأخيرة من خلال رصد ما أصاب الجامعة والتقاليد الجامعية من تدهور وفساد، ومن خلال رصده لتاريخ الجامعة المصرية، رصد أيضا بألم ما أصاب الشخصية المصرية والقيم والأخلاق المصرية.
ولا عجب من شخصية تقدس الجامعة بهذا الشكل مثل الدكتور رؤوف عباس أن ينضم إلى حركة 9 آذار - مارس، لإستقلال الجامعات فى مصر ويحرر كتابها بل المانيفستو الرئيسي لها المعنون "الجامعة والمجتمع"، ومن قبله يصدر كتابه "جامعة القاهرة... ماضيها وحاضرها".
ولمن لا يعرف عباس وحياته نقول انه نزح من قريته "جرجا" في صعيد مصر إلى مدينة بور سعيد. وعن والدته يقول في مذكراته إنها بور سعيدية من أصول دمياطية يعمل والدها بحاراً يبيع التذكارات الشرقية على ظهر قارب بجوار السفن عند دخولها القناة.
وتحفل المذكرات أيضاً بلحظات ألم ويأس تعرض لها عباس كادت تدفعه للتوقف عن الدراسة، ولكنه استطاع عبر التحمل والمثابرة أن يواصل تعليمه العالي ويعمل في بعض المهن البسيطة حتى تم تعيينه في شركة قطاع عام تنتج حامض الكبريتيك وسماد السوبر فوسفات واستمر بالعمل فيها مدة خمس سنوات استطاع خلالها لاقتراب من العمال وجعل حياتهم موضوعاً لرسالته للماجستير عن الحركة العمالية وتاريخ الحركة النقابية في مصر ونوقشت رسالته في نوفمبر/ تشرين الثاني 1966.
وفي عام 1971يحصل عباس على درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث بمرتبة الشرف الأولى ليعمل أستاذاً في قسم التاريخ في كلية الآداب جامعة القاهرة وفي نيسان - أبريل 1972 يسافر إلى طوكيو في مهمة علمية في معهد اقتصاديات الدول النامية. وكانت هذه المهمةانقلاباً في حياته العلمية، ففضلاً عن إسهامها في تكوينه المنهجي وفي دراسة التاريخ المقارن وتعمقه في دراسة تاريخ اليابان في القرن التاسع عشر، أكسبته مهارات بحثية جديدة ومنحته آفاقاً أخرى حيث استثمر تلك الفترة في ترجمة كتاب "يوميات هيروشيما" وتأليف كتاب آخر بعنوان "المجتمع الياباني في عصر مايجي" أصدره في حقبة التسعينات من القرن العشرين حينما احتدم الجدل في ساحة الثقافة العربية حول المقارنة بين مشروع محمد علي النهضوي واليابان في القرن التاسع عشر.
ومنذ أعوام قليلة اتهم المؤرخ الأميركي اليهودي (جوئيل بينين) رؤوف عباس بمعاداة السامية وثار جدل واسع حول هذه المسألة في الصحافة المصرية، فهو رفض الإشراف على ترجمة كتاب يبين "شتات اليهود المصريين" واعتبره لا يتسم بالموضوعية في رؤيته لموقف مصر الناصرية من اليهود المصريين، ما دفع بينين لاتهام عباس بمعاداة السامية، الأمر الذي أثر في الوسط الثقافي في مصر وجعل وزارة الثقافة تتوقف عن ترجمة الكتاب.
وقدم عباس على مدى أربعين عاماً من العمل البحثي والفكري كتباً بارزة منها "الحركة العمالية في مصر" و"النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الكبيرة" و"مذكرات محمد فريد" و"جماعية النهضة القومية" و"أربعون عاماً على ثورة يوليو.. دراسة تاريخية" و"حرب السويس بعد أربعين عاماً" وغيرها.
وتولى عدداً من المناصب منها رئيس اللجنة العلمية لدار الوثائق القومية فضلاً عن إشرافه على مركز تاريخ مصر المعاصر التابع لدار الكتب المصرية، وترأس وحدة الدراسات التاريخية في مركز الأهرام للدراسات السيلبية والاستراتيجية قبل أن يتم اختياره رئيساً لمجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ العام 1999 وحتى وفاته.

صاحب اليوميات

ويونان لبيب رزق ينضم في صيف وفيات الأعيان إلى رفيقيه عبد الوهاب المسيري ورؤوف عباس. رزق اشتهر بأنه صاحب اليوميات من خلال حلقات التاريخ المصري المعاصر التي دأب على كتابتها في السنوات الخمس عشرة الأخيرة في صحيفة الأهرام المصرية الشهيرة.. والتي تشابهت فيها روح يونان لبيب رزق في العملية التأريخية وروح الجبرتي في القرن التاسع عشر أو المقريزي في القرن القرنين الرابع عشر والخامس عشر في سرد يوميات مصر، وان كان رزق امتلك بالطبع أدوات التأريخ العصري خير امتلاك ..
ولعل من أغرب المصادفات أن رزق وعباس جرى بينها سجال تاريخي حاد في الشهور الأخيرة من حياتهما. فالجمعية التاريخية التي كان يرأسها عباس لم ترض عن المسلسل التاريخي الشهير "الملك فاروق" الذي اضطلع بمراجعته تاريخيا يونان لبيب رزق، وعباس رأى وأعضاء الجمعية أن رزق ترك الحبل على الغارب للمؤلفة "لميس جابر" لكي تتحيز لفاروق، فيما فرق رزق بين الأحداث التاريخية والدراما مؤكداً أن الأحداث التي وردت بالمسلسل سليمة مئة بالمئة وأن الدراما خيال من صنع المؤلفة، هو غير مسؤول عنه، وأتبع ذلك بدراسة قيمة شرتها مجلة "المصور" الأسبوعية المصرية يؤكد فيها أن عودة الملكية إلى مصر مستحيلة تاريخياً لينتهي بهذه الدراسة كل الجدل والتشكيك!

ورزق من مواليد العام 1933، ويعتبر من أبرز المؤرخين المصريين المتخصصين في التاريخ المصري المعاصر، وهو واحد من أفضل وأدق من اشتغلوا على الثورة الشعبية المصرية في 1919 ومرحلة الليبرالية السياسية المصرية التي تلتها، وهو أستاذ لهذه المادة في جامعة عين شمس.
واشتهر يونان لبيب رزق بعضويته في لجنة التحكيم الخاصة بالنزاع حول طابا حيث لعب دوراً حاسماً في إعادتها لمصر من خلال الوثائق التاريخية والصور التي قدمها للجنة التحكيم والتي حسمت بشكل قاطع ملكية مصر لهذه المنطقة في سيناء.
وحصل يونان لبيب رزق على العديد من الجوائز أبرزها جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية عام 1995 وجائزة مبارك للعلوم الاجتماعية عام 2005 وجائزة مؤسسة الفكر العربي عام 2002 وجائزة الحركة الثقافية اللبنانية 2004.
وللراحل أكثر من 40مؤلفاً في التاريخ، من أهمها "من ديوان الحياة المعاصرة"، وصدر منه عدة مجلدات، و"الحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني" و"الأحزاب المصرية قبل ثورة يوليو52" و"تاريخ الوزارات المصرية 1878-1953".
كما أسهم يونان لبيب رزق في تأليف كتب أخرى بالاشتراك مع مؤرخين مصريين مثل "الصهيونية والعنصرية" و"مصر والحرب العالمية الثانية" وغيرها.
وبعد رحيل هذه الكوكبة من المؤرخين المصريين في صيف وفيات الأعيان يعلق بالذهن سؤال ملح: هل ستصمد مدرسة التأريخ المصري وتقدم المزيد من أفذاذها؟ الحق ان رزق وعباس والمسيري لهم تلاميذ كثر في الجامعة وتخرج من بين أيديهم المئات من المؤرخين الذين تسلحوا بمناهج التأريخ المحايدة والمستنيرة، لكن هل تكون لديهم ملكات التأليف والموسوعية وتوظيف التاريخ في تحليل قضايا اليوم واستشراف الغد كما كانت متوافرة لدى أساتذتهم الأعيان الثلاثة؟ يبدو هذا السؤال في ذمة التاريخ، عندما يصبح الغد ماضياً ساعتها فقط ربما ننعى مؤرخين أفذاذاً آخرين أو لا ننعى!!

http://www.almustaqbal.com/stories.aspx?StoryID=297423